

هل ان العرب أمة شعر فقط ؟!

د. عبد الرحمن منيف

سأقتصر في هذه المداخلة على اثارة قضيتين :

الأولى : هل أن العرب أمة شعر فقط ؟

والثانية : ما هي اللغة التي يجب أن تستعمل في حوار الرواية ؟

بالنسبة للقضية الأولى : من الأقوال السائرة، وغالبا ما تردد بفخر ونشوة، ان الشعر ديوان العرب، وان العرب أمة شعر.

لقد أخذنا هذا القول، بخاصة في جانبه الايجابي، ورضينا به أولا، ثم بدأنا نتفاخر به، وربما لازلنا كذلك إلى الآن.

يبدو لي أن كل أمة من الأمم مرت في طور شعري، أو كان الشعر أبرز وأرقى صيغة من صيغ التعبير الفني لديها. وهذه الصيغة، بجمالها وكثافتها وسهولة انتشارها وانتقالها، نجدها في ملاحم الشعوب القديمة، ملاحم وادي الرافدين ومصر القديمة، لدى الهنود واليونان، وحتى لدى شعوب منعزلة وأقل تطورا.

اذن كان الشعر أرقى صيغ التعبير الفني في مراحل معينة، لكن في مراحل لاحقة لم يعد الصيغة الوحيدة، اذ شاركه المسرح والموسيقى والنحت، نجد ذلك واضحا وشاخصا في المسرح الروماني والتمثيل اليونانية وفي معابد الهند والصين، مما يشير إلى تطور وتعاقب العصور، ووجود صيغ من التعبير متعددة.

وبالنسبة للعرب يتردد القول كثيرا، وربما كصفة مميزة وثابتة أنهم أمة الشعر. وهذا القول الذي له ما يؤيده، وميز فترة طويلة من تاريخ العرب، ثم أخذ يُروج له بأساليب مقصودة، قول فيه جانب من صحة، لكنه لا يعني الحقيقة كلها، وربما بالنسبة للبعض كلام حق يراد به باطل.

فالشعوب هي التاريخ المستمر، وهي التجارب المتراكمة، وهي، في نفس الوقت، التطور الذي لا يتوقف، أكثر مما هي صفات ثابتة وأبدية.

فاذا كان الشعر مَيَّز مراحل تاريخية معينة في حياة العرب، وكان طريقتهم في التعبير الأكثر ملائمة وانتشاراً، فلا يعني ذلك ان العقل الذي قدم هذا الكم الهائل والرائع من الشعر لا يحسن سوى الشعر، أو انه مختص بالشعر وحده.

ان العقل الوجداني العربي (وما يمكن تسميته بالحالة الحضارية) لم يقتصر على الشعر، ولم يكتف به. لقد حفلت الحضارة العربية بالعلوم والفنون جميعها، تقريباً، وانجزت في معظم المجالات. وكانت الحاضنة لتراث الانسانية خلال عدة قرون، وبالتالي تطور العرب واستجابوا لحاجات ومتطلبات عصرهم، وكانوا سباقين في الرياضيات والفلك والطب والكيمياء وغيرها من العلوم، فلماذا ينسى كل ذلك ويقتصر توصيفهم على أنهم أمة شعر، وأن الشعر ديوانهم الوحيد ؟

يبدو لي ان المقصود من هذا التوصيف تغليب وتأكيد سمات معينة للعقل العربي، وحصره في هذا النطاق، وبالتالي تأكيد عجزه أو قصوره عن الوصول إلى آفاق أخرى.

ما اعتبره أكثر صواباً وأقرب إلى الحقيقة، ان الكم الشعري الذي انتجه العرب يفوق أي شعب، فنتيجة لهذا الكم تولدت تقاليد وصيغ في التعبير أصبح الشعر جزءاً أساسياً منها. ليس المهم هنا ان نبحث عن الجذور والأسباب، إذ ربما كان ذلك نتيجة البيئة القاسية من حر وصحارى، أو ربما نتيجة طبيعة حياة الناس خلال فترات طويلة من ارتحال وتنقل، وربما لأن الكلمة بمعناها التجريدي سببا في هذه الحالة.

المهم ان حالة مثل هذه تركت أثرها. فاذا كانت شعوب أخرى، وديانات أخرى، عيّرت عن تفوقها بأشكال مادية ملموسة، فان تعبير العرب، خلال تلك الفترات، كان من خلال الشعر، ثم من خلال القرآن، ولهذا فان الكلمة تعني لهم شيئاً مهماً. والكلمة لا تصل إلى أرقى مستوياتها الا حين تصبح شعراً، أو ما يشبه الشعر.

لقد أدرك هذه الحالة العرب القدامى، ولذلك تعاملوا معها بكثير من الحرص والانتقان، وتعاملوا معها أيضاً بتفاعل يتوافق مع الزمن الذي عاشوا فيه. فالنحو، في فترة معينة كان شعراً، والتاريخ كان شعراً، وكذا حال عدد من العلوم والفنون. وفي وقت متأخر أصبح القص وسيلة رائجة في التعبير كان الشعر جزءاً من هذا القص.

لا يعني ذلك ان الشعر طريقة العرب الوحيدة في التعبير، وإنما معناه أنهم كيفوا الشعر وجعلوه جزءاً من البيئة التعبيرية القادرة على الايصال والتأثير، ومن هنا الأهمية التي يتمتع بها.

صحيح أن بعضاً من الشعر الموجود في بنية عدد من الأعمال النثرية، بما فيها الملاحم، بنية زخرفية خاصة تلك التي وضعت في عصور متأخرة، مثل بعض المقامات، لكن يبقى الشعر عنصراً درامياً هاماً في بنية معظم هذه الأعمال، وبالتالي يضيف على قوامها شكلاً يجعلها مختلفة عن غيرها، وربما يعطيها نكهتها العربية أيضاً.

لكن ما حصل في فترة متأخرة، كرد فعل لهذا الكم الهائل من الشعر، وأيضاً للتأثر بثقافات وأساليب شعوب أخرى، ان جرى التخلي أولاً، ثم السلبية الأقرب إلى العداء، بين الشعر والفنون الأخرى، خاصة في مجال القص.

ما أريد ان الفت النظر إليه هنا، ان الشعر، يمكن ان يعود من جديد جزءاً حياً ومتفاعلاً، ويصبح جزءاً من صيغة تعبيرية جديدة تجعل الأدب العربي له خصائصه المميزة.

أي يمكن أن يكون الشعر عنصراً هاماً في بناء المسرحية، ولابد من التساؤل هنا كيف ان المسرح الشعري نما وازدهر في لغات عديدة أقل شعراً وشاعرية من اللغة العربية، بينما لا تتجاوز المسرحيات الشعرية العربية أصابع اليدين ؟

ويمكن أن يكون الشعر أيضاً عنصراً هاماً في بناء الرواية العربية، مع الإشارة هنا ان معظم انجازات العرب في القص، من ألف ليلة وليلة والوزير والمقامات، حافلة بالشعر، وبطريقة درامية إلى حد كبير، وليس مجرد زخرفة.

وأخيراً أريد أن أجازف بطرح فكرة، وهذه الفكرة قد لا يسندها الآن دليل ملموس، ولكنها تستحق الاختبار :

ان الشعر، الآن يجتاز مرحلة دقيقة في تطوره. وربما أخذ يراوح مكانه منذ سنوات، وأعتقد انه بحاجة لأن يجدد مرة أخرى، وهذه المرة ليس من حيث الشكل وإنما من حيث الموضوع، وقد لا يكون ذلك الا بأن يصبح جزءاً من الحياة بعنفوانها ومتطلباتها، وان يتجرأ على خوض مجالات تركها أو لا يزال متهيباً من ركوبها. فهل يمكن ايجاد علاقة بين الشعر والرواية، مثلاً، يتجاوز الشعر فيها الزخرفة ليصبح جزءاً من البناء ؟ انه أحد أمثلة التحدي.

الفكرة الثانية التي أريد أن أثيرها هنا. وقد تبدو مناقضة للنقطة السابقة، هي اللغة الواجب استعمالها في الرواية.

لا حاجة للإشارة ان اللغة كائن حي، فهي قابلة للتطور والنمو، كما هي قابلة للضمور والمرض، وربما للاندثار أيضاً.

فهناك لغات كثيرة كانت قوية خلال فترات سابقة، لكنها تلاشت أو تقلصت أو تحولت إلى لغات للعبادة فقط، والسبب ان الشعوب التي تكلمت هذه اللغات هزمت أو تراجعت،

وبالتالي هزمت معها لغاتها، أو بسبب ان اللغة ذاتها لم تتطور، ولهذا لم تستطع ان تلبى حاجات المرحلة الجديدة.

ان النقاء اللغوي، بالنسبة لأية لغة متطور. فاللغات تتأثر ببعضها، وتستفيد من بعض، حسب موقع اللغة من حيث المكان وقوة الحضارة التي تعبر عنها، وحسب بنية اللغة من حيث التركيب والاشتقاق والتمثل، ولذلك فان التمازج والتبادل بين اللغات أمر مألوف ولا يشكل عيبا أو نقصا.

هذه النقطة تضطرننا لأن نفكر بكيفية تطوير اللغة العربية واغنائها. يجب أولا ان يتم ذلك ضمن متطلبات العصر وضروراته وطبيعته أيضا، خاصة ان قوة التأثير والتوصيل الان لا يمكن أن تقارن بفترات سابقة !

هذه ملاحظة أولى اما الملاحظة الثانية فهي العلاقة بين الفصحى والعامية.

كثيرا ما نناقش هذه القضية من خلال مواقف نعتبرها مبدئية، أي غير قابلة لأي تساهل أو لاية مرونة، لأن الأمر، كما نبرر، متعلق بوحدة الأمة وبمستقبلها، وبالتالي لا يحتمل أي تنازل !

يمكن التسليم ببعض هذه المبررات، والمواقفة على ان العاميات، حتى في البعد الواحد، تتراجع نتيجة التعليم والصحافة ووسائل الاتصال، ولذلك يجب الاستمرار والتأكيد على استعمال الفصحى لأنها وحدها لغة المستقبل.

ان هذه الدعوة، رغم مبرراتها، تبقى غير مقنعة ولا تفي بالغرض.

فالفصحى نفسها، بوضعها الحالي، ليست كافية، لأنها، نتيجة عدم تطورها، وفي أكثر من مستوى سواء من حيث النحو أو المفردات، لا تفي بالحاجات الأساسية المطلوبة. هذا أولا، وثانيا، ان اللهجة العامية، لأنها ظلت على صلة مع الحياة والناس اكتسبت غنى وأهمية لا يمكن انكارها. ولذلك لابد من امتحان مدى الفائدة ان تعود على العربية من ترحيل قسم مهم من هذه العامية إلى الفصحى.

لقد ضمرت العربية الفصيحة نتيجة عدم الاستعمال لقرون طويلة، وأصبحت، في حالات معينة، كلفة أجنبية.

قد يقال في معرض الدفاع عن الفصحى المحنطة أن فيها كل ما نريد، ويجر اي فقيه كتبه الصفراء لاستخراج مفردات قد تعني مدلولات معينة مشابهة، لكن السؤال الأساسي : هل ان الناس تستعمل أو يمكن أن تستعمل هذه المفردات ؟

المشكلة التي أريد ان ألفت النظر إليها ليس المقارنة بين الفصحى والعامية، ولا محاولة تغليب واحدة على الأخرى وإنما محاولة الوصول إلى كتابة حوار، سواء للمسرح أو للرواية، صادق وحقيقي. إذا أردت أن أكون صادقا ودقيقا يجب أن استعمل لغة الناس في هذه المرحلة، في هذا المكان، يتكلمون بهذه الطريقة وحدها وكل محاولة لتجاوز هذه الطريقة مجافاة للصدق والدقة.

لا أريد الترويج لهذه اللهجة أو تأييدها فانا لست لغويا أو هاويا لاثارة المتاعب. ما أريده فقط هو أن أصور عصري وناسه، وأتكلم هنا كروائي أريد أن أقول كيف يتكلم الناس، كيف يشتمون، ما هي ردود أفعالهم إزاء حدث ما، وكيف يعبرون عن ذلك.

هنا يطرح أشكال لابد من مواجهته :

الذين يقولون بالفصحى وحدها، وبشكلها الراهن لا يريدون اصلاح اللغة، أو اغناءها انهم يقولون كلمة عامة، دون ان يفكروا بنتائجها، ودون ان يحفلوا بما يترتب عنها من نتائج. اللهجة العامية ليست حلا، لأن هناك عشرات اللهجات حتى في القطر الواحد. ان ما يجب التفكير فيه معالجته، هو الوصول إلى اللغة الوسطى. واللغة الوسطى ليست مساومة وتنازلات متبادلة، وإنما هي لغة الحاجة والضرورة، أي لغة الحياة. وهذه اللغة تحتاج إلى جهد متواصل وعمل يومي. وفي جميع الميادين، للتطويع، للاغناء، للتسهيل، للتقريب، أي وضعها في الخدمة اليومية الحية.

ان اللغة التي نستعملها الآن تختلف عن فترة سابقة، ولابد أن تختلف غدا، لكن الزمن وحده لا يكفي للوصول إلى اللغة المطلوبة، إذ لابد من عمل في اللغة ذاتها، وأعتقد ان الأدب خاصة الرواية والمسرح، يلعب دورا هاما في تطوير اللغة واغنائها، كما ان الحياة بقوتها وضرورتها تفرض أشياء كانت تبدو صعبة أو مستحيلة القبول في وقت سابق.

من هنا أرى ضرورة كبيرة للتوقف عند هذه المسألة واعطائها ما تستحق من الاهتمام والتفكير، لعلنا نصل إلى اللغة الوسطى الحقيقية، وشرط هذه اللغة أن تكون سهلة، جامعة، وأن تكون لغة الناس والحياة أيضا.

يقول الجاحظ ان رواية نكتة بغير الطريقة التي يرويها، يحولها إلى سماجة لا يطيقها الذوق ولا تضحك احدا.

والنكتة واحدة من صيغ التعبير الضرورية خاصة في الزمن الذي ينشئ فيه، فهل نريد ان نسعد الناس أم نريد أن نعذبهم فوق عذابهم ؟ هذا هو أحد تحديات اللغة.